البنيوية والدراسات الإعلامية

الدكتور نصر الدين العياضي
أستاذ محاضر بمعهد الإعلام
جامعة الجزائر

رغم أن علوم الإعلام والإتصال تعد حديثة العهد مقارنة ببقية العلوم الإجتماعية، إلا أن هناك العديد من المدارس الفكرية والمنهجية التي حاولت إخضاع الظاهرة الإعلامية للدراسة والتحليل العلميين قصد التعمق في فهمها ورصد تأثيرها والتنظير لتطورها، وهي تقريبا ذاتها التي طبعت الفكر الإجتماعي في القرن العشرين. يمكن أن نذكر منها مايلي:

النظرية الوظيفية:

ترى المجتمع نسقا إجتماعيا مترابط الأجزاء، يقوم كل جزء بإنجاز مجموعة من الوظائف. وتعد وسائل الإتصال الجماهيري أحد أجزائها، تساهم، بجانب الأجزاء الأخرى في تلبية حاجات المجتمع الخاصة، وفي أداء مجموعة من الأدوار التي تعمل على تطور المجتمع وانسجامه، و هي: تداول الإرث الإجتماعي ـ المحافظة على الوضع وعلى التنظيم الإجتماعي القائم ـ مراقبة المحيط واستيعاب كل جديد فيه وتوظيفه لذات الأغراض.

ومن رواد هذه المدرسة الكثيرين يمكن أن نذكر، علي سبيل المثال: شارل ر. رايت (Charles R wright) ملفن ديفلوغ (Defleur melvin) وأياهو كاتز (E.Katz) وجون كليبر (J.Klapper)وجون ستوتزل (J.Stoetzel) وجون كزنوف (J.Cazeneuve) .

النظرية النقدية:

وهي نظرية مستلهمة من الماركسية. ترى أن وسائل الإتصال الجماهيري هي أطر ضمن البنى الفوقية للمجتمع ، العاملة على إعادة إنتاج الإيديواوجية المهيمنة. إنطوت عدة تيارات تحت لواء هذه النظرية، نذكر منها على سبيل المثال:

التيار الذي تمثله مدرسة فرونكفورت، ويتناول بالنقد وسائل الإتصال الجماهيري «الصناعات الثقافية» انطلاقا من المضامين التي تقدمها «الثقافة الجماهيرية» ومن تأثيرها نتيجة تسليعها« تحويلها إلى سلعة». فيذكر أنها تحولت إلى ثقافة سطحية وامتثالية، خالية من كل تجربة أصيلة ومتميزة وناقدة. من أبرز روادها : «هوركيمر» Horkheimer و«أدرنو» Aderno و«هربرت ماركيز(H. MARCUSE) .

التيار الذي ينطلق من الإقتصاد السياسي في تحليل وسائل الإتصال الجماهيري موليا الأهمية المرجحة للعامل الإقتصادي، ومن رواده : «مردوك» (G.murdock) وغولدينغ (Golding)وبرنار مياج Bernard Miege .

التيار الذي ينطلق من مقولة الهيمنة في دراسته لوسائل الإتصال الجماهيري، فيولي الأهمية للعامل الإيديولوجي المستقل نسبيا عن العامل الإقتصادي. ومن الذين تبنوا هذا التيار نذكر على سبيل المثال: (أرموند متلار) (Armand mattelart) وهربرت شيلر (H.SChiller) .

نظرية المحدد التكنولوجي:

وهي التي تؤرخ لتاريخ البشرية بتطور أنماط الإتصال: النمط الشفوي، والنمط المكتوب، والنمط السمعي البصري (الإلكتروني). تنطلق من أن العامل التكنولوجي هو المحدد الحاسم في تطور وسائل الإتصال الجماهيري، وأن الطبيعة التكنولوجية لهذه الأخيرة هي التي تحدد نمط تفكير الأشخاص وسلوكهم بل تربط بعض الإنجازات الهامة والمعقدة التي حققتها البشرية، كالقومية مثلا، وبعض النظم الإجتماعية والسياسية والعمرانية: (الإمبراطوريات، المدينة) بسيادة هذا النمط الإتصالي أو ذاك. أنتشرت هذه النظرية بأعمال كل من «هارولد إنيس»(Harold innis) ، و«مرشال مكلوهان» (M.Mc luhan)، و«ألسون» (D.olson) و«ستوك» (B.stock) . وغيرهم.

ومن المدارس الفكرية التي طبعت الدراسات الإعلامية، البنيوية، التي هي موضوع إهتمامنا في هذه الدراسة.

ماهي البنيوية؟

إنتقل إستخدام مفهوم البنية من مجال الفن المعماري إلي مجال البيولوجيا في القرن السابع عشر، ثم إلى مجال الفلسفة، والأنثربولوجيا، والتحليل النفسي، والأدب، في القرن التاسع عشر. وأصبحت تدل علي: البناء، النظام، نسق من العلاقات،الشمولية... فهذه المرادفات وغيرها تبين حقيقة ماذهب إليه «ريمون بودون»(Raymond boudon) حيث يذكر أن :(السعي إلي البحث عن تعريف واحد ومحدد لعبارة البنية يبين بشكل مسبق بأننا لم نفهم معناها).[1]

تعرف البنية بأنها (نسق من التحولات، المتضمنة لقوانين باعتبارها نسق يختلف عن خصائص العناصر والذي يحافظ على ذاته أو يثرى بواسطة لعبة هذه التحولات ذاتها بدون أن يفضي هذا النسق إلى ماهو خارج عن وظائفه، أو يدعو إلى عناصر خارجية. باختصار، تشتمل البنية علي الخصائص الثلاث التالية: الشمولية totalite والتحول Transformation والإنضباط الذاتي L'autoreglage[2]

وتعرف أيضا بأنها: (نسق من العلاقات الباطنة المدركة وفقا لمبدأ الأولوية المطلقة للكل على الأجزاء، له قوانينه الخاصة المحايثة، من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والإنتظام الذاتي، على نحو يفضي إلى أن أي تغيير في العلاقات يؤدي إلى تغيير في النسق نفسه، وعلى نحوينطوي فيه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالا على معنى) [3]

إن البنيوية مجال خصب يمتلك منطلقات نظرية وفكرية. تقدم تصورا مغايرا ومختلفا لدراسة الفعل الثقافي ومنتوجاته. أستلهمت من الفلسفة والتحليل النفسي والتحليل الأدبي. وأثرت بشكل واضح في عدة فروع من المعرفة: الفلسفة، وعلم النفس، والأنتربولوجيا، واللسانيات، والإعلام. قدمت لها مجموعة من التعاريف التي تكشف عن تنوع النظرة لها:

ـ(تحليل كل بناء إلي جزئياته التي يتكون منها، وذلك للكشف عن العلاقات الموضوعية التي تربطها ببعضها البعض، ثم إعادة تركيبها إلى بناء كلي جديد يكون أرقى من البناء السابق وأكثر تقدما منه) [4]

ـ(نمط جزئي يتبنى عملية تحليل البنية الداخلية للكليات الإجتماعية)[5]

ـ(حالة من التعدد النظري الصحي الذي يفرز أسئلة جديدة تتطلب نوعا آخر من التحقيق الذاتي)[6]

ـ(هي إكتشاف الماهيات الكامنة خلف كل بناء، هذه الماهيات التي تتمثل في العلاقات الموضوعية، وهي ليست ماهيات عقلية مجردة، وإنما هي نفسها هذه العلاقات وليس شيئا آخر أعلى منها)[7]

ـ(إن البنيوية ليست مدرسة أو حركة أو مفردات، بل نشاط يمضي إلى ماوراء الفلسفة، ويتألف من سلسلة متوالية من العمليات العقلية التي تحاول إعادة بناء الموضوع لتكشف عن القواعد التي تحكم فيه)[8]

يمكن أن نستنتج مما سبق مجموعة من المؤشرات التي ترتكز عليها كل مقاربة بنيوية وتسترشد بها في التحليل والدراسة:

ـ لايستخدم مفهوم البنية للإنفراد بجزء مما هو مطروح للدراسة، وليس للإقتراب من الكل باعتباره شكلاً من الجمع البسيط لكل الأجزاء التي تكونه. بل للتعاطي معه كنسق. إنه حزمة من العلاقات بين العناصر المرشحة للكشف عنها، واستجلاء معانيها ودلالاتها الواعية أو غير الواعية، والبحث عمّا يتحكم فيها.

ـ يستخدم مفهوم البنية للكشف عن العناصر والعلاقات داخل ماهو مطروح للدراسة، الذي يتميز بنوع من الثبات والمداومة خلافا لما هو طارىء وعارض فيه.

ـ يستخدم مفهوم البنية للبحث عن ما يعتقد أنه حقيقي ومتأصل وجوهري في ماهو مطروح للدراسة خلافا لكل ما يوحي أنه ظاهري فيه.

ومجمل القول أن المؤشرات المذكورة ترتكز على التعارض الثلاثي التالي: (النسق التراكمي ـ الدائم بدل الطارىء والظرفي ـ المتأصل والجوهري بدل الظاهري: Systeme/agréga - Permanent/conjoncturel - Realité de l'objet/ses apparences [9]

ـ تستخدم البنية بشكل أقرب إلى التجريد من التعيين. والتجريد هنا لايعني إحداث القطيعة مع الواقع أو الهروب منه، بل هو شكل من الإبتعاد والإرتقاء النظري لفهمه من خلال تفكيك ماهو مطروح للدراسة. أو بعبارة أخرى لإستخراج العلاقات الخفية والثابتة التي تتحكم فيه حتى يدرك بشكل أفضل. من هنا نفهم التأكيد على أن البنيوية هي صرح نظري وليس معطى أمبريقي.

ـ تستخدم البنية لدراسة الحقيقة اللاشعورية التي تدل عليها آثارها ولاتظهر

بنفسها. وهي حقيقة آنية تكشف عن نظامها المشكل في الحاضر والجاهز. فالبحث عن بنيات ماهو معروض للدراسة يدفع بالضرورة إلى الإهتمام بالبحث عن ماهو تزامني Synchronique وليس ماهو تعاقبي diachronique .

ـ تسعى البنيوية إلى إدراك المنتوج الثقافي (النص،الخطاب، الصورة، اللقطة الإشهارية، الفيلم، المسلسل التلفزيوني، الأنواع الصحفية المختلفة، العرض المسرحي...) إنطلاقا من الفهم المنبثق من المنتوج ذاته. وبهذا فهي تثور على كل محاولة قراءة إنطلاقا من الماضي. وتناهض كل مسعى يرمي إسقاط الماضي عليه. وتختلف كل الإختلاف عن ذلك التي تحوم حول المنتوج ولاتتصدى له. ترتفع عن الحس العفوي، أو ما يسمى بالقراءة الإنطباعية له . إنها لاتتناوله بأحكام مسبقة وأراء جاهزة* ، بل تتخذه موضعا لبحثها، ومادتها في ذلك ماهو كامن فعلا فيه. تنطلق منه للكشف عن العلاقات الخفية بين عناصره.

إن المنتوج الثقافي نظام رمزي يحمل تعددية الدلالة، يشجع على الغوص في تجليات المعاني. فالمعنى هو الإختلاف كما يقال باللغة الفرنسي Le sens c'est la difference ومخاطبة المسكوت عنه. بالطبع إن هذه القراءة ليست محايدة. إنها واعية لكونها مشبعة بمرجعية حاضر المنتوج الثقافي، وبالمرجعية الثقافية للقارىء.

تعرضت البنيوية إلى مجموعة من الإنتقادات، التي يمكن أن نذكر منها مايلي:

ـ ينقد أتباع الماركسية البنيوية لكونها مبنية على منطق يتعارض تماما مع المنطق الجدلي لفهم التطور. فالبنيوية تستند إلى الدائم والثابت والجوهري في البنية، كما سبق وأن أوضحنا ذلك، بينما المنطق الجدلي يخالف هذا التصور، إذ يؤكد على جدلية التطور والتغيير، فكل شيء يتطور ويتغير. ولايوجد ما يعتقد أنه (دائم أو جوهري)[10] وإن وجد فوجوده مؤقت فقط لأنه مرشح للتغيير.

ـ إن تفصيل التزامني عن التعاقبي هو عدم الإهتمام بالجانب التطوري، وهذا معناه

* نقول هذا بكل تحفظ لأن بعض الباحثين يؤخذون على الدراسات البنوية في مجال الإعلام أنها ترتكز على التحليل البنوي لتبرير أفكارها المسبقة إزاء مادة التحليل. أنظر
Judith Lazar: Sociologie de la communication de masse, armand colin, 1991, P 137

إستغناء البنيوية القصدي عن الجانب التاريخي في دراسة الظواهر الثقافية. وبهذا فقد أتهمت البنيوية بأنها لاتاريخية. حيث وجه أحد الباحثين النقد لرواد البنيوية الذين أنتقدوا الوجودية بشدة قائلا: (مع جون بول سارتر يوجد الكثير من التاريخ، ومع ليفي شتراوس، وفوكو وألتوسر، ولكان، لا وجود للتاري أبداً)[11] يمكن أن نفهم سبب (اللاتاريخية) هذه، حسب البعض، فيما يلي: (قام البنيويون في أوائل دراستهم بإعادة الإعتبار للموقف التزامني، وقدموا دراسات إنسانية لتحل محل التاريخ وتعيد الإعتبار للمجتمعات التي ليس لها تاريخ، ولتهتم بإنسان تلك المجتمعات)[12].

- يعتقد البعض أن البنيوة هي فلسفة موت الإنسان[13] . فهي تقلل من شأن الإنسان ومن تأثيره، لأنها ترى أن الإجتماعي يفسر الفردي (الإنسان)، والفرد ليس سوى جزء من الكل، إنه ليس أكثر من عنصر في دواليب المجتمع، وهذا ما أدى بالباحث (جون بياجي) إلى التشديد على ضرورة أن يقدم كل من الفرد والكل نصيبة من التفسير والتحليل.[14]

- يعتقد أن البنيوية هي منهج شكلاني، حيث يقول عنها (هربرت ماركيوز)، في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد (إننا أمام بث إيديولوجية جديدة تعمل على وصف ما يجري وما معنى ما يجري، بالشروع في إقصاء المفاهيم القادرة على فهم ما يجري، وما معنى ما يجري)[15]

البنوية ودراسة وسائل الإتصال الجماهيري

تأثرت الدراسات الإعلامية الى حد بعيد، بثقافتين مختلفتين: الثقافة الأوربية ذات التقاليد الفلسفية، والثقافة الأمريكية ذات التوجه الأمبريقي، والإختلاف بينهما واضح جدا، خاصة في مجال الدراسات الإجتماعية، حيث صاغه أحد الباحثين فيما يلي :(إن الأمريكي الشمالي يعرف عما يتكلم وهذا قليل، والأوربي لا يعرف عن ما يتحدث

وهذا فظيع .. الأوربي يزايد في تأمله على المدى الطويل)[16] لكن لا يمكن الإعتقاد أبدا بأن هاتين الثقافتين تسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا في مجال الدراسات الإعلامية، فالندوة السنوية الخامسة والثلاثون للجمعية الدولية لإتصال International communication association، التي تعد من أكبر الجمعيات المهنية بالولايات المتحدة الأمريكية في مجال الإتصال، والتي تضم الممتهنين والباحثين، مدت جسور الحوار والتفاعل مع مدرسة فرنكفورت، ومع البنيوية اللسانية الفرنسية.

فتح في أروبا مركزان لبحوث الإتصال في بداية الستينيات، فطبعا دراسة وسائل الإتصال الجماهيري بشكل واضح من خلال إلحاحهما على البعد الرمزي للثقافة الجماهيرية، وعلى الوظيفة الإجتماعية اللاشعورية لوسائل الإتصال الجماهيري، يقع إحداهما بفرنسا، وهو مركز دراسات وسائل الإتصال الجماهيري (C.E.mas) الذي ساهم (رولان بارث) بفاعلية في إنطلاقته، ويقع الثاني ببريطانيا، وساهم في تأسيسه ستورت هال Stuart Hall وهو المركز المعاصر للدراسات الثقافية (Center for contempory cultural studies).

إذا كانت مساهمة أروبا وخاصة فرنسا، في إدخال البنيوية للدراسات الإعلامية بحاجة الى تفسير وتوضيح، فالأمر يعود، في إعتقادنا، الى الإعتبارات الثلاثة التالية:

ـ إن مساهمة الكتاب والروائيين الفرنسيين في النشاط الإعلامي واضحة جدا، فأميل زولا (Emile Zola) ، وبلزاك (Balzac) ، وشاتو بريون (Chateau Briond) فكتور هيغو (Victor Hugo) أحتلوا مكانة مرموقة في الكتابة الصحفية، إذا كانوا من بين مؤسسي بعض الأنواع الصحفية، فممارسة العمل الصحفي والتفكير فيه نالت قسطا كبيرا من وقتهم وجهدهم.

ـ إن علوم الإعلام والإتصال في أروبا، وفرنسا تحديدا، لم تنطلق بشكل مستقل كما هو الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية، بل قامت بفضل جهود عدة تخصصات، منها على وجه التحديد: النقد الأدبي. واللسانيات، حيث إلتف بعض الباحثين حول

مجلة الإتصال Communication التي أصدرت في 1968 عددا خاصا بالتحليل البنيوي للنص أو الخطاب ، ومجلة " تال كال" (Tel- quel)*

ـ إن البنيوية، رغم ما يدعي روادها بأنهم منهجيون وليسوا عقائديين، هي صرح نظري، أدخل التقاليد الفلسفية في الثقافة الأروبية الى مجال الدراسات الإعلامية، وقدم رؤية للظاهرة الإعلامية والثقافية مغايرة للتوجه الأمبريقي، ورغم ما توحي به من تمرد على أمبريقية بحوث الإعلام والإتصال ، فإنها تدفع الى إستبصار نقائص هذا التوجه من خلال ما تطرحه من منطلقات وما تتوخاه من أهداف ومرام.

إن الضرورات التي أدت الى ميلاد البحوث الأمبريقية معروف، وتكاد أن تحفظ، وهي : البحث عن فاعلية وسائل الإتصال الجماهيري في بث الدعاية أثناء الحرب العالمية الثانية، وأثناء الحرب الباردة، البحث عن مدى مقدرة وسائل الإتصال في التأثير على سلوك الناس وعلى تصرفاتهم، وهذا نتيجة التوجه المتزايد للسلطات السياسية للإعتماد عليها في إدارة الحملات الإنتخابية، وفي التأثير على إختيار الناخبين، ونتيجة توجه المعلنين للإشهارعلى سلعهم فيها من جهة ومن جهة أخرى ، نتيجة إعتماد وسائل الإتصال الجماهيري المتزايد على عائدات الإشهار في تمويلها، وقد تطورت في ظل جدل كبير حول الثقافة الجماهيرية، إذا كان اللوم يوجه الى نقاد البحوث الإمبريقية لكونهم لم يقدموا عينة من المعطيات الواقعية ويخضعونها الى الفحص والتحليل العلمي وفق معايير البحث العلمي المعمول بها في مجال العلوم الإجتماعية[17]

---

* يمكن أن ندرج أسماء بعض الباحثين مع الإشارة الى أهم مؤلفاتهم:

– رولان بارث (الميثولوجيا Mythologeis 1957، مبادئ في السيميولوجيا 1964، نظام المودة 1967، النقد والحقيقة 1967، الكتابة في درجة الصفر1972، متعة النص، ومحاولات نقدية)

– جوليان غريماس : (علم الدلالة البنيوي 1966،و المعنى (du sens) 1970، دراسات في الشعرية 1972 ، السيميوطيقيا والعلوم الإجتماعية 1976.

–جوليان كريستيفا : (النص الروائي 1970، ثورة اللغة العشرية 1974، تعددية الكلمة 1977)

– تزفتان تودروف : (ماهي البنيوية 1968 ، الأدب واللغة 1967، نظرية الرمز، ونقد النقد 1984)

– جيرار جينات: (وجوه بأجزائه الثلاثة، إيماءات، مدخل الى معمارية النص 1979).

– أندري مارتيني : البنية واللغة 1966، مدخل للسيميولوجيا clefs pour la semiologie 1973)

– جورج مونان : (مدخل الى السيميولوجيا 1970، سيمولوجيات النص الأدبي).

إن الإنتقادات التي وجهت الى البحوث الأمبريقية في مجال الإعلام والإتصال، هي ذاتها تقريبا التي وجهت لها في مجال العلوم، الإجتماعية، نذكر منها :

ـ أنها جزئية ولا تستطع أن (تشكل إطارا نظريا ضروريا لفهم عميق لميكانيزمات التأثير الإجتماعي لوسائل الإتصال الجماهيري)[18] فالنتائج التي تقدمها محدودة جدا بموضوعها، وبالظرف المكاني والزماني، وبإمكانية تعميم نتائجها خارج الظرفين المذكورين، والإنطلاق منها للتجريد، الذي يسمح بفهم نظري للظاهرة الإعلامية والثقافية بشكل أفضل، غير مضمون.

ـ (إن الحاح الأمبريقيين على دراسة تأثير وسائل الإتصال الجماهيري الآني وعلى المدى القصير على التغيير شبه التلقائي للآراء وسلوكات الفرد يخفي نموذجا ضمنيا للإتصال، نموذج ميكانيكي جدا وسطحي كثيرا [19] الى درجة الإعتقاد بالتطابق بين التعرض لوسائل الإتصال الجماهيري وتأثيرها.

ـ تختصر البحوث الأمبريقية مفهوم التأثير (Influence) في نجاعة (efficacité) الرسائل المبثة على المدى القصي[20] وبهذا فهي تساوي بين الخطاب الإشهاري le discours puplicitaire وبين المادة الإستعراضية والترفيهية، فإذا كانت نجاعة الخطاب المذكور تقاس بمدى الإقبال على شراء السلع التي شكلت موضوع الإشهار وإرتفاع مبيعاتها، فالأمر يختلف عن المادة الإعلامية والترفيهية حتى وإن تزايد عدد المقبلين على مشاهدتها.

إن التحليل البنيوي للنص أو للخطاب يختلف عن تحليل محتواه ، فهذا النوع الأخير من التحليل قدمت له مجموعة من التعريفات، نذكر منها ما يلي:

- (هو إجراء منتظم يستخدم لفحص مضمون المعلومات المسجلة) [21]

- (منهج لدراسة الإتصال وتحليله بطريقة منتظمة وموضوعية وكمية بهدف قياس المتغيرات) [22]

- (دراسة الموضوعات الإعلامية التي تقدمها الوسيلة للتعرف على مكانة كل مادة إعلامية من إجمالي المواد التي تقدمها، وتقدير أهميتها النسبية)[23]

يهتم تحليل المحتوى «بما هو ظاهر في النص» حيث يتعدى النظرة الإنطباعية له الى محاولة البحث عن مجموعة من المعطيات الكمية، وهذا بواسطة مجموعة من الإجراءات، منها تقطيع المادة المدروسة الى كلمات وأفكار لتحصى بالإرتباط مع الهدف الذي يسعى اليه الباحث [24] وتحديد أهمية الموضوعات إنطلاقا من نسبة تكرارها، أو من المساحة المخصصة لها في الصحف، أو الوقت الممنوح لها في الإذاعة وفي التلفزيون، فالغاية الأساسية هنا هو التكميم.

سمحت هذه التقنية من التحليل بالإستنتاج الذي يحتاج الى الكثير من الفحص والتحري، والذي مفاده أن الأهمية الكمية الممنوحة لموضوع ما، تناسب نفس القدر من الأهمية التي يوليها الجمهور له، كما أن الكم لا يعكس بالضرورة موقف وأراء القائم بالإتصال من الأراء أو المواقف أو الموضوعات المكممة.

إن التحليل البنيوي لمادة الإتصال الجماهيري يتجاوز نقائص التحليل الكلاسيكي لمحتواها، حيث لا يكتفي بالمحتوى الظاهر، بل يغوص في المعاني المتسترة داخل العلاقات وضمن وضع إنتاج المادة المذكور، إن تحديد مواقف، وآراء، ووجهة نظر منتج الخطاب الإعلامي لا تبرز في نظر البنيويين من خلال الأهمية الكمية الممنوحة لهذا الموضوع أو لتلك الفكرة، بل تتجلى عبر إكتشاف العلاقة القائمة بين الرموز Symboles في الخطاب ذاته، وهذا يعد أحد الجوانب الهامة في معنى الخطاب [25] أي دراسة العلاقات البنيوية بين الرموز كمنتجات للمعاني [26] والتي تتم بالإستقراء وليس الإستنتاج.

يتعدى التحليل البنيوي حقل دراسة مادة الإعلام الى مادة الإتصال: تحليل الخطاب، والسرد والصورة وصولاً إلى دراسة الأسطورة وسير (Le fonctionnement) الإيديولوجية[27] وينطلق في ذلك من معطيين أساسيين:

- تتضمن بعض هذه المواد أكثر من نسق من العلامات: مكتوب، سمعي ، سمعي بصري، ...

- إن تحليل هذه المواد هي تحليل نوعي لا يتم بمعزل عن سوسيولوجية الثقافة، وهي بهذا تعمل على تهديم هذه المواد وإعادة بنائها في فضاء أوسع وهو الفضاء الثقافي.

ألم يقال بأن أهم ما أحدثته البنيوية من تغيير هو إعتبارأن كل النشاطات والإنجازات الإنسانية الثقافية منها خاصة، هي لغات خاصة، أو هي ذات بنية مماثلة لتلك التي تملكها اللغة؟

إن المجالات التي إنطلقت منها الدراسات البنيوية في مجال علوم الإعلام والإتصال، يمكن حصرها كما يلي: اللغة اللفظية: تغذت الدراسات في هذا المجال من إنجازات عدة مدارس، نذكر منها على وجه الخصوص، مدرسة "جنيف" بفضل الأعمال الرائدة التي قدمها عالم اللسانيات السويسري "فرديناند دي سوسر"، والتي مدت اللسانيات بمجموعة من المفاهيم الثنائية التي زادت من معرفة الظاهرة اللسانية، ومن أعمال المدرسة الأمريكية بفضل أعمال الفيلسوف شارل سندرس بيرس، ومن أتى من بعده من المجددين مثل بلومفليد ونوم شومسكي، الذي أضاف الى علم اللغة ما يسميه بالنحو التوليدي، الذي يدفع الى الإهتمام بالابنية العميقة للغة.

المنطلقات التي تحدد أرضية الدراسة في هذا المجال نذكر المفاهيم الثنائية التالية:

اللسان / الكلام: Langue/ parole يمثل هذان المفهومان حقيقتين مختلفتين حسب "دي سوسير"، فاللسان هو الوجه المؤسسي للغة والمشكل عبر التاريخ، أما الكلام فهو أداء فردي ومجال للتركيبات الخطابية الحرة والمرتبطة بإمكانيات الفرد، إن الكثير من الأنواع الصحفية تسمح ببروز هذا الأداء الفردي[28] وتحليل المنتوج الصحفي يشكل مادة للبحث إنطلاقا مما هو خاص (كلام) الصحفي أو المؤسسة الإعلامية، التي يميزها ويثبت شخصيتها وهويتها، ففي وسائل الإعلام لا يدرس الكلام دائما بالنظر الى اللسان، لكن بالنظر الى وضع الإتصال situation، والوضع هنا يختلف عن مفهوم السياق، لأنه يشمل المحيط الفيزيائي والإجتماعي الذي ينتج فيه فعل الكلام والصورة التي يملكها كل من المرسل والمستقبل عن الآخر، وهوية كليهما، بينما السياق le contexte يتضمن الجانب اللساني فقط.

العلامة/ المرجع: signe / referent إن المرجع هو الواقع المادي، والعلامة هي مفهوم ذو طبيعة إتفاقية، وذو علاقة إعتباطية غير معللة بالواقع، إن المنطق الذي يحكم تطور المرجع غير المنطق الذي يحكم العلامة، وإذا كان علم اللسانيات يهتم بدراسة العلامة وليس المرجع، فالدراسات البنيوية في علوم الإعلام والإتصال تهتم

بدراسة أحد أوجه العلامة: المدول من جهة، ومن جهة أخرى الأشكال الرمزية (ومنها اللسان) التي تستعين بها وسائل الإتصال الجماهيري في إعادة صياغة الرمرجع أو ما يسيمى بإنتاج ما يمثل الواقع إعلاميا، أو (في إنتاج الإتفاق الإجتماعي على المعاني[29] ، أو ما يطلق عليه الباحث (جون فرنسوا تيتي) (Jean francois tétu) بأثر الواقع (L'effet de reel) [30]

الدال / المدلول: Signifié/signifiant تتكون العلامة من وجهين دال ومدلول، فالدال هو الصورة الصوتية أما المدلول فهو الصورة المفهومية، والعلاقة بين المفهومين مازالت مثار جدل، حيث يعتقد بعض اللسانيين أن العلاقة التي تربط العلامة بالمرجع هي ذاتها التي تربط الدال بالمدول، بينما يرى البعض الآخر غير ذلك، إذ يعتقد أنهما غير منفصلين بل يشكلان وحدة واحدة.

التعيين/التضمين: Connotation/ dénnotation يوجد مستويان في كل علامة: المستوى التعيني، وهو المعني الأول للعلامة كما يحدده القاموس، والمستوى التضميني، وهو المعنى الإضافي، أو التلوين في المعنى الأصلي، الذي يتم بفضل الإستخدام الإجتماعي للغة، فبالتضمين يمكن الولوج الى تعددية المعنى في النص، إن النظامين المختلفين: التضميني والتعيني، يسمحان للنص، حسب (رولان بارث) بأن يشتغل كأنه لعبة، كل نظام يحيل الى الآخر حسب الحاجة لبعض الوهم[31] وضمن هذه اللّعبة يبرز المجاهر به، و"يقبض" على المسكوت عنه، لقد أجريت بعض التحاليل على النص الإعلامي ضمن هذا المنظور.[32]

إن البحث على هذه الثنائية تم بالإستعانة بما توصل اليه التحليل النفسي على يد "فرويد" في إستنطاقه للمحتوى الظاهر Contenu manifeste والمحتوى الضمني Contenu latent في تفسير الحلم عبر التكثيف La Condensation والإنتقال (le déplacement) .

السرد / الخطاب: Recit/discours للتميز بين هذين المفهومين يمكن القول أن كل ملفوظénoncé مكتوب أو شفهي هو منتوج عملية التلفظ enonciation فبعض الملفوظات تظهر وكأن لاعلاقة لها بالذات المتكلمة أو المتلفظة التي أنتجتها وتسمى السرد le recit، فحسب عالم اللسانيات "إميل بن فنيست Emile benveniste يعد السرد تلفظا في درجة الصفر، فكل شيء يتم وكأن الشخص المتكلم لا وجود له، فالأحداث تحكي عن نفسها بنفسها[33]

إن السرد هو الملفوظ الذي يختفي، ويمحى أمام ما يلفظ، فيصبح في غاية الشفافية: محتوى بدون حاو، دال بدون مدلول[34]. من جهة أخرى، نجد بعض الملفوظات وكأنها مرتبطة بالتلفظ، وهي التي يسميها السيميائيون الخطاب. وهي في نظرهم اللسان الذي يكشف المتكلم عن إضطلاعه به[35]، ويستخدم عنصر الزمن أيضا لتوضيح الفرق بين السرد والخطاب.

امتد مفهوم السرد ليشمل مختلف المنتوجات الثقافية: الرواية، والقصة، والسرد الصحفي، والفيلم، والمسرحية، والرقص والحكاية الشفوية، وتقاربت أشكال تحليلهما ودراستهما.

- خضع السرد l'analyse du récit للتحليل الوظيفي الذي صاغه (فلاديمير بروب) propp في كتابه: (مرفولوجية الحكاية الشعبية) في 1928، إذ يؤكد فيه على أن السرد يتضمن مجموعة من العناصر الثابتة وأخرى متغيرة، تتمثل هذه الأخيرة في الأشخاص وفي الطريقة التي يؤدون بها عملهم .وأما العناصر الثابتة فهي الأعمال المنجزة من طرف هؤلاء الأشخاص، وهي التي يسميها (بروب) الوظائف، ومن هنا تمت تسمية هذا النوع من التحليل بالتحليل الوظيفي[36] دعا (كلود بريمون) الى ضرورة التعاطي مع الأنواع الأدبية والفنية بإعتبارها مواد سردية: لقد تم تجاوز هذا التحليل في دراسة المنتوجات الثقافية والإعلامية عبر الطموح الى التوغل في الكشف عن المنطق الجوهري المتلبد في السرد.

سنطرح لاحقا بعض الأدوات التي تتضمنها ترسانة المفاهيم التي سعت الى تحليل الصورة، والفيلم، وسنكتفي بالإشارة المقتضبة الى أن منتوج الصحافة المكتوبة للتأكيد على أنه تم التعامل معه كخطاب*، مثل : الإفتتاحية، المقال، التعليق، وأيضا كسرد **، مثل التقرير الصحفي، الربورتاج، وإلى حد ما الصورة الصحفية le portrait.

---

*أنظر على سبيل المثال : القسم الثاني الخاص بتحليل جريدة le monde†·Í†Ĵ†A.guedj,
J.Girault: le monde, humanisme, objectivité et politiaue, éd es 1970

** أنظر على سبيل المثال الى الدراسة الكلاسيكية:
J.Gritti : un récit de presse, communication,N8-1966.

كما تم التعامل مع المنتوج التلفزيوني على أساس أنه منتوج سردي نظرا لخصوصية التلفزيون كوسيلة لإنتاج الإستعراض، والتمشهد، ولتقديم الفرجة، ومن هنا تم تشخيص إخفاق بعض التلفزيونات لكونها إنجرت وراء إنتاج الخطاب على حساب إنتاج السرد.

الصورة*** la Photographie: تعرف الصورة (بأنها كل تقليد تمثيلي مجسد أو تعبير بصري معاد لواقع معين)[37] ، تشكل محاولة (رولان بارث) من خلال مقاليه: (الرسالة الفتوغرافية Le message photographique المنشور في مجلة "Communication" عدد 1962/1 و(بلاغة الصورة)

(la théorique de l'image) المنشور بنفس المجلة في عددها 1964/4، المنطلق الأساسي في التحليل البنيوي للصورة، حيث ينطلق من تبديد الإعتقاد الأولي بأن الصورة الفتوغرافية رسالة بدون مدونة Code بإعتبارها تعيد إنتاج الواقع بشكل آلي، إذ يرى بكل وضوح أن هذه الصورة تحمل رسالتين الأولى بدون مدونة، والثانية مزودة بمدونة ومستمدة من الأولى. ولمزيد من التوضيح يذكر أنه بالإضافة الى أن الصورة تحمل محتوى مماثل للواقع (المشهد، الأشياء، المنظر) توجد رسالة إضافية يطلق عليها عادة بأسلوب إنتاجها. وهو الذي يشكل المعنى الثاني عبر مدلول جمالي أو إيديولوجي يحيلنا الى ثقافة متلقي الرسالة[38]

تتميز الصورة الفتوغرافية، حسب (رولان بارث)، بكونها ذات إستقلالية بنيوية: تشكل من عناصر منتقاة، وموضبة، ومعالجة وفق المطلبين،: المهني، والجمالي / الإيديولوجي، اللذين يعطيان لها بعدا تضمينيا، توجه الى المتلقي الذي لا يكتفي بتسلمها فقط، بل يعيد قراءتها على ضوء ما يملك من زاد ثقافي ورمزي، أي إنطلاقا من مرجعية ثقافية وحضارية، وتصل هذه البنية في الصحافة المكتوبة ببنيات لسانية أخرى : العنوان، الشروح والتفسيرات المرافقة لها la légende، والنص الصحافي.

ازدادت الدراسات العلمية إهتماما بالتحليل البنيوي للصورة نتيجة الإعتماد المكثف على هذه الأخيرة في عملية التواصل، وفي الإشهار، وظهر جيل من الباحثين

***إن مفهوم الصورة يعجز على التعبير على نمطين من الإتصال البصري: Photographie وImage

الذين سعوا الى توظيف مجموعة من المفاهيم المستخدمة في اللسان وطبقوها على الصورة: مثل: الرمز المرئي، الدال والمدلول، التمفصل، التضمين، والتعين وغيرها. مع العلم بأن محتويات هذه المفاهيم والعلاقات بينها تختلف في الصورة عن اللسان، فعلاقة الدال والمدلول في العلامة اللسانية هي علاقة - إعتباطية عرفية، بينما الدال في الصورة هو التماثل مع الواقع المدلول Le réel signifié[39] لقد إعتمدت الدراسات البنيوية الحديثة للصورة الإشهارية على ما توصلت اليه المدرسة الثقافية (L'école culturaliste) في الولايات المتحدة الأمريكية على يد (ماك دوغال) W.Mc. dougell، روث بنديكت ruth benedict، وما توصلت اليه سيميولوجيا الإتصال بفرنسا، بفضل (أعمال جيرار لانيو) gérard lagneau، (وبرنار كتلات) Bernard Cathelat *، للبحث عن معنى "الحقيقة السوسيوثقافية"، و"التطابق الثقافي conformite culturelle ، و"صورة الذات L'image de soi يمكن الإشارة في هذا الصدد الى أن الدراسات الإعلامية في الوطن العربي لم تهتم بالصورة، رغم تزايد أهميتها في الإتصال وفي وسائل الإعلام، إذا تم التعامل معها كنعصر تبوغرافي، ضمن العناصر الأخرى ، التي تشكل صفحة الجريدة.

الإخراج الصحفي la mise en page: تم تجاوز دراسة الإخراج الصحفي من زاوية البحث عن مظاهر توازن الصور، والأعمدة، والأشكال، والخطوط، وكل العناصر التبوغرافية، أو عدم توزانها، وقياسها بالستنيمتر المربع. حيث شكل الإخراج الصحفي مجالا للدراسة السيميولوجية التي تبحث عن "إخراج المعنى" عبر الأشكال والملفوظات، وعرف بأنه :(بلاغة الفضاء الذي يهدم نظام الخطاب "بمنطقه الزمني" لإعادة تشكيل خطاب أصيل، خطب الجريدة. فصفحة هذه الأخيرة هي شكل figure «شكل يدرك بالنظر» وفي الوقت ذاته تمثيل Figuration "بلاغي" للإعلام. [40]

- الفيلم : يشمل الفيلم على عدة لغات langages، حسب (كريستيان ماتز Christian Metz منها : الصورة المتحركة (Image mouvante) -مسار الخط المكتوب- صوت الكلام - الصوت الموسيقي والضجيج، تنفرد الصورة المتحركة وتتميز بكونها إرتبطت بالفن السينمائي، حيث لم تستخدم في وسائل التعبير السابقة عن السينما[41].

*أنظر على سبيل المثال:

Bernard cathelat: publicité et image de soi, Dunod, paris 1992
Gérard lagneau: vers une sociologie de la puplicité, ed flammarion, paris, 1987.

هناك شبه إجماع بين الباحثين على أن اللقطة le plan هي الوحدة الصغرى التي تمكنهم من تحليل اللغة السينماطوغرافية. فقدمت لها عدة تعاريف : ("إنها أصغر وحدة في المونتاج" و " إنها الوحدة الأساسية في تشكيل السرد السينمائي" و"وحدة المعنى السينمائي").[42]

فاللقطة هي الوحدة الأولى التي تمسح بتقطيع الواقع المصور، وتعيد إنتاجه من خلال المونتاج الذي يحدد رسالة الفيلم وتكون مفهومة لدى المتلقي.

الأسطورة : le mythe تعرف (بأنها معلومات قصصية منظمة تدور حول المعتقدات الميتافيزيقية، أو أصول الكون، أو المؤسسات الإجتماعية، أو تاريخ شعب من الشعوب، ووظيفة الأسطورة، لأبناء المجتمع، هي تسجيل وعرض النظام الأخلاقي الذي بواسطته يمكن تنظيم وتشريع المواقف، والأحداث الإجتماعية)[43]

إن الوشائج بين الأسطورة ووسائل الإتصال الجماهيري لا تتضح في تأكيد البعض على أن هذه الأخيرة قضت على الأساطير القديمة وخلقت مكانها أساطير حديثة. هذا ما يمكن التوصل إليه من خلال تعريف" رولان بارث" للأسطورة. فيقول عنها أنها الكلام، لكن ليس أي كلام، فالأسطورة هي نسق من الإتصال، إنها رسالة، فلا يمكن أن تكون شيئا أو مفهوما، أو فكرة، إنها نمط من الدلالة.[44] فالأسطورة تتجلى عبر طريقة الكتابة والحكي والإيقونة التي تعبر بها وسائل الإتصال الجماهيري عن الأحداث. ففي هذه الحالة تكون ضربا من النظرية التي تصوغ الواقع الإعلامي بشكل ضمني، أي لا يعترف بها أنها كذلك، والتي يتقاسمها كل من المرسل والمتلقي، والتي تساهم في تجسيد الإختلاف بين وسائل الإتصال الجماهيري التي تنقل الأحداث الواقعية ذاتها..

إن النقد الموجه للأسطورة بإعتبارها نمط من الدلالة، هو في حقيقة الأمر نقد للغة الثقافة الجماهيرية، ومن هذا المنطلق فالأسطورة حسب (رولان بارث) تفرغ الظواهر الإجتماعية من حقيقتها، وتسلب منها معناها التاريخي، وتدمجها ضمن الأشياء الطبيعية، وبهذا فهي في إعتقاده " تحوّل ما هو تاريخي الى طبيعي".

أفق البنيوية والدراسات الإعلامية في الوطن العربي

- بعض الإفتراضات:

رغم أن البنيوية وجدت طريقها الى الفلسفة والنقد الأدبي في الوطن العربي، خاصة في مغربه، ورغم أن الحديث أصبح يدور حول ما بعد البنيوية، إلا أنها لازالت مثار جدل ونزاع بين المختصين في العلوم الإجتماعية في الوطن العربي، تغذى هذا الجدل من النقد الموجه للبنيوية والذي أشرنا إليه أعلاه *.

وهناك بعض المحاولات المعزولة والخجولة في دراسة منتوج وسائل الإعلام العربية دراسة بنيوية، والتي لم تستثمر كل الإمكانيات التي تتيحها البنيوية لفهم الظاهرة الإعلامية، وذلك لمجموعة من الإعتبارات، نذكر منها ما يلي:

- يعد البحث في مجال علوم الإعلام في الوطن العربي الحلقة الأضعف في الدراسات الإجتماعية والإنسانية، فمجالاته لازالت أرضا بكرا. وما أنجز من بحوث في مجال الإعلام والإتصال لم يتبلور في مدارس فكرية معروفة.

- إن إقتصاد السوق الذي أمتد الى قطاع الثقافة والإعلام في بعض الدول العربية، لم يكن له حضور مؤثر في مجال البحث في العلوم الإجتماعية بصفة عامة، والإعلام بصفة خاصة، فرغم إتساع مجال ممارسة الإشهار إلا أن هذا الأخير لم يصل الى مستوى الإستثمار في مجال بحوث الإعلام والإتصال.

- لا زال "المجتمع المدني" في الكثير من الدول العربية في وضع جنيني، وبالتالي لم يحدد مجالات تدخله وهواجسه التي تتميز عن هواجس الحكومات، وبالتالي لم يتدخل في مجال البحث الإعلامي كما هو الشأن في بعض الدول المتطورة.

- عانت البحوث الأمبريقية في الدول العربية، وبدرجات متفاوتة، من أمرين أساسيين، الأول: عدم نضج العمل الإعلامي نتيجة عدم إكتمال بناء المؤسسات الإعلامية، ونقص الإمكانيات التي تساعدها على تقديم منتوج إعلامي مداوم، ومنتظم وذي مستوى موحد، يسير نحو التحسن، فبعض الصحف رغم ما تملكه من تجربة

* هذا ما إستنتج من الملتقى العربي الأول للدراسات الأدبية البنيوية، المنعقد بجامعة قسنطينة (الجزائر) في شهر ديسمبر 1986.

ورصيد مهني لا زالت تعاني من الإضطراب،: عدم الإستقرار في تبويبها وفي مستوى تحريرها، وإخراجها، وعدم الإنضباط في ظهورها. ناهيك عن مشاكل التوزيع وإضطرابه التي تقطع أوصال إقامة كل علاقة دائمة ومتميزة مع القارئ لذا تكون نتيجة بعض البحوث المهتمة بقراءة الصحف هزيلة إذ تتوصل الى التأكيد على أن إختيار القارئ محدود، ويكاد أن يكون معدوما، فتبين أن القارئ يضطر في كثير من الأحيان للإكتفاء بقراءة أية جريدة تصله في هذا اليوم أو ذاك.

كما أن إضطراب نظام البرمجة في التلفزيون الوطني، وإهتزاز شبكة برامجه، وخضوعها للإرتجال ولنزوات الأفراد، وإقتقادهما الى الأسس التي تسمح بتعويد الجمهور، تجعل المشاهد لايكتشف ما يقدمه له التلفزيون إلا أثناء بثه، وتعسر مهام البحث العلمي الذي يسعى إلى البحث عن العلاقة بين التلفزيون الوطني والجمهور.

الأمر الثاني يتمثل في نقص المعلومات والمعطيات الإحصائية الخاصة بوسائل الإعلام في الدول العربية: عدد الصحف، وعدد سحبها، ونسب مرتجعاتها، وأشكال تمويلها، ونسبة مساهمة الإشهار في هذا التمويل، أو عدد أجهزة الإستقبال التلفزيوني أو الإذاعي، ونسبة إنتشارها الجغرافي، ونسبة توزيعها الإجتماعي، اشكال تمويل الإذاعات والتلفزيونات، ونسبة مساهمة الإشهار في التمويل، ودرجة تغطية الشبكة الكهربائية للتراب القطري، وغيرها من المعلومات والمعطيات التي من شأنها، إن توفرت، أن تساعد في تعميق المعرفة عن علاقة الجمهور بوسائل الإعلام في هذا القطر أوذاك، وفي هذه المنطقة أو تلك، ووسط هذه الشريحة الإجتماعية أو تلك.

- بقيت بحوث الإعلام في الوطن العربي مرتبطة بالمؤسسة الرسمية المتشبعة بالتصور الجاهز عن وسائل الإعلام، المسلوخ من الكتابات عن هذه الوسائل في المجتمعات المتطورة. يتمثل هذا التصور في الإيمان بقدرة وسائل الإتصال الجماهيري وتأثيرها السحري على الجمهور، لذا إنطلقت هذه البحوث في تحليل مضمون المادة الإعلامية التي تقدمها هذه الوسائل من زاوية مقدرتها على عكس توجهات الخطاب الرسمي إزاء هذه القضية أو تلك، إن الكفاح من أجل نيل الإستقلال الوطني، والعمل على تشييد مجتمع على أسس مغايرة لتلك التي سادت في المجتمعات الإستعمارية، زاد من الإهتمام بوسيلة الإعلام بإعتبارها قادرة على نشر الخطاب المبشر بهذا المجتمع.

من هنا أنساقت البحوث الإعلامية وراء هاجس مركزي عكسه السؤال التالي: هل

نقلت وسائل الإتصال الجماهيري هذا الخطاب، وكيف نقلته؟ وكأن هذا الهاجس ينطلق من إشكالية أن الخطاب الرسمي سليم وصحيح، بكل ما يحمل من أفكار وتصورات، لكن العلة تكمن في نقله، وترويجه من خلال وسائل الإتصال الجماهيري.

- نعتقد أن الدراسات البنيوية يمكن أن تثري البحوث الإعلامية في الوطن العربي، إنطلاقا من الإفتراضات التالية:

1- تسمح البنيوية بفهم واقع وسائل الإتصال الجماهيري والتعامل مع منتوجها (الرسائل الألسنية والأيقونية) ضمن أوضاع إنتاجه، فتمكن الباحث من تحقيق اللحظتين الأساسيتين: لحظة الإنفصال عن موضوع البحث، والتعاطي معه كنص يخضع للتحليل إنطلاقا من الرؤية المنبثقة منه، والمستمدة من الثوابت والمتغيرات المحورة فيه، ولحظة الإتصال والتفاعل من نتائج اللحظة الأولى، حيث تكتمل قراءتها وفق الأبعاد النفسية والسوسيولوجية في الفضاء الثقافي الوطني المتميز. تتجلى أهمية هذا الإفتراض (الإنطلاق من النص) إذا أخذنا بعين الإعتبار جسامة ما يردده بعض المثقفين، كقولهم :(العلوم الإنسانية والإجتماعية في العالم الثالث كلها في العصر الحديث مستمدة من الغرب، وهي إضافة إلى ذلك، تنتج وتعيد إنتاج المعرفة الغربية محليا)[45] أو (المعرفة التي يملكها العرب المعاصرون عن أنفسهم ليست معرفة ذاتية بالمعنى الدقيق للكلمة، بل هي معرفة وساطية، ونقلت إليهم بأساليب مباشرة أو غير مباشرة)[46]

- 2- إن البنيوية تمكن من معالجة المنتوج الثقافي والإعلامي من منظور الحضارة المعاشة يوميا وليس من منظور (الثقافة العليا) الموجودة في بطون الكتب، فأين هي اللغة "المدفونة" في "لسان العرب" ونحو سبويه، وصرف إبن جني، وبلاغة الجرجاني، في حديث طلاب الجامعات اليوم، والعامل والفلاح، وفي كتابة الصحافيين، وفي المسرحيات والأغاني. عرفت الثقافة العربية الإسلامية عدة إنقطاعات على الصعيد الأنطولوجي، فلم يصل إلى الأجيال الحالية سوى النذر القليل، وفي مجالات محدودة، فأمهات الكتب القديمة من شعر، وبلاغة، ونحو وصرف، وفلسفة، وتصوف، وفقه، نشرت خلال الفترة 1850-1930 فقط.(وفترات الإنتقال من التداول الشفهي إلى التسجيل الكتابي للتراث مر تحت رعاية السلطة السياسية، إن لم يكن بإيعاز منها)[47] مع الإفتراض بأن هذا الإنتقال لم يحدث بدون نزعة إنتقائية وإقصائية لبعض التيارات الفكرية والثقافية.

3- إن المنتوج الثقافي والإعلامي في الدول العربية شديد الإرتباط بالخطاب

السياسي السائد، فالثقافة تبدو أنها مسيّسة كثيرا، والمضامين الإعلامية التي تقدمها وسائل الإتصال لا تبتعد كثيرا عن الخطاب السياسي السائد، تقتفي أثره، تبرره، أو تكبره، وهذا لأسباب تاريخية وإجتماعية لا يسع المقام لذكرها الآن، لذا نعتقد أن المنتوج الثقافي والإعلامي يحمل، بهذا القدر أو ذاك، ما يطلق عليه "دوبري" باللاشعور السياسي، فالبنيوية تسعى إلى الكشف عن الحقيقة اللاشعورية التي تدل عليها أثارها ولا تظهر بنفسها.. تستطيع أن تصل إلى ما يجسده المفهوم المذكور: الجانب "اللاعقلاني" في تفسير الظواهر السياسية، كما أنها تحرر من الإنكفاء على نقد السلطات، والسياسات، إلى نقد الفكر المنتج لها.

4- تملك الكلمة مكانة خاصة في الحضارة العربية (ففي الكتابة العربية يتم إستخدام المفردة الرنانة ذات الجرس التي تضرب في قاع المتفرج فتلهبه وتسقطه أسير المفردة الموروثة)[48]، يؤكد الباحث وليام أيه رو هذه الحقيقة بقوله:(لا يوجد هناك شعب في العالم مثل العرب يمتلك ذاك الإعجاب الحماسي بالعبارة الأدبية، ويتأثر بشكل كبير، بالكملة سواء المقولة أو المكتوبة) [49]

تستطيع البنيوية أن تدرس العلامة اللسانية في خضم الحياة الإجتماعية العربية. تخرجها من حلقها المعجمي إلى حقها الدلالي. وتكشف عن دورها في توسيع التجربة الإجتماعية والعاطفية لدى المتلقي.

5- إن اللسان على الصعيد الرسمي والشعبي في الفضاء الثقافي العربي، لا يستخدم دائما بنية توصيل المبتغى والمستهدف، بل يستخدم أيضا، وبدرجة كبيرة، للتكتم، ويبقى المعنى المقصود مختفيا وراء التلميح، إلى درجة يمكن القول أن العلاقات الإجتماعية داخل هذا الفضاء الثقافي هي ممسرحة، والأحداث التي تنقلها وسائل الإتصال الجماهيري هي الأخرى ممسرحة، هنا تكمن أهمية دراسة نسق العلامات اللسانية للكشف عن جوهر ما هو ممسرح. والمسكوت عنه، أو المعنى الضمني المتلبد وراء المعنى الظاهر.

6- تؤكد دراسات التلقي والتأثير الإعلامي، على أن المشاهد يرتكز على التجربة المتحصل عليها مما يشاهد في التلفزيون ليعطي معنى لبعض الأوضاع في حياته الواقعية ويؤولها، ويرتكز على تجربته في حياته الحقيقية ليعطي معنى لما يشاهده من برامج في التلفزيون [50]

يمكن القول أن الإستعراض الكبير والوحيد الذي يحظى بجمهور عريض في الدول العربية هو المادة المتلفزة. ونظرا لكثرة الإقبال على برامج التلفزيونات الأجنبية في المنطقة العربية، هناك ضرورة للبحث قصد إستخراج معنى أو "لا معنى" المادة المتلفزة. فالتحليل البنيوي للمنتوج التلفزيوني يسمح بالكشف عن العالم الرمزي المعبر عنه تلفزيونيا، والمستند إليه في فهم الظواهر في الحياة اليومية، كما أن يسمح بتعميق الهوية. ألم يُقَلْ: إن إدراك الذات، أو الوعي بالذات، يتم من خلال الآخر؟

7- تعد المادة الإخبارية التي تقدمها التلفزيونات العربية خطبا وليست سردا، فالتحليل البنيوي للمنتوج الإخباري في التلفزيون يستطيع أن يحدد أوجه قصور الخطاب ضمن إشكالية التلفزيون الحديث الذي أصبح منافسا للتلفزيونات العربية، والمتميز بغلبة الإتصال على الإعلام، وباتساع فضاء الفرجة والتمشهد التي تحصر مجال التأمل والتفكير.

8- إن الظاهر التلفزيونية التي تعد حديثة العهد في المنطقة العربية تعاني من تعارض المنطقين: المحكى والمصور، وكل بحث معمق في الأنسقة الدلالية المرئية والمسموعة يكشف عن تبعثر الرسالة الثقافية والإعلامية التلفزيونية العربية، وتشتت أشكال التفاعل معها، إن العمل التلفزيوني الناجح هو الذي يبدع توليفة، تتجلى فيها الدلالة عبر الفن والفن عبر الدلالة.

9- إن المنتوج التلفزيوني هو خلاصة مكثفة لكل المنظومات الإتصالية الموروثة والمكتسبة في مجتمع ما. فالبحث عن هذه المنظومات لا يسمح بتفعيل المنتوج المذكور فقط، وإنما يسمح بتفجير أشكال التعبير عن المخيال، وإطلاق سراحه من خلال الإستعانة بكل التمثيلات الحاضرة والغائبة أو المغيبة (الحكايات الشعبية، الأساطير، الصور، الأفكار، والمفاهيم، الطقوس الإجتماعية والثقافية)، ويسمح للمجتمع بتحقيق ذاته الثقافية التي تقلصت بفعل التوترات اللغوية في المجتمع والإقصاء، والتعالي عن بعضها.

10- يقدم النص الإشهاري فكرة، يؤجج الرغبة والإشتهاء، ويطلق سراح الحلم، يكون هذا عادة منتوج عدة مدونات (CODES) بصرية، سمعية. الغوص في بنيات هذه المدونات يستطيع أن يحدد القيم الثقافية والحضارية، التي يستند اليها، ويعري ذاك التعارض بين الترويج للمنتوج الوطني داخل الوطن ولأبناء الوطن بالإستعانة بالحقيقة السوسيوثقافية" الغربية والمستلهمة من الصورة المشوهة عن الذات.

المراجع

1 RAYMOND BOUDON: a quoi sert la notion de structure, gallimard, 1968, P71

2- Piaget Jean: Le structuralisme, Puf 1968,P6

3- كيروزيل أديث : عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، ترجمة جابر عصفور، دار عربية، بغداد 1985 ص 289

4- عبد الباسط عبد المعطي، عادل الهواري : في النظرية المعاصرة لعلم الإجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر ص 220

5- Miriam Glucksmann, structuralisme analysis in contemporary social thougth: a comparison of the theory of claude Levi Strauss and Luis Altusser

نقلا عن د / عبد الرحمان عزي: ما بعد البنيوية والمعالم الثقافية العربية، المستقبل العربي، لبنان، 1988/12

6- Peter M blau and Robert K.Merton, continuities in stuctural inquiry

نقلا عن د/ عبد الرحمان عزي ، نفس المرجع.

7- عبد الباسط عبد المعطي، عاد الهواري، نفس المرجع

8- Roland barthes " Essais critiques, ed seuil, coll le point, paris 1981, P123

9- Claude Mouchot: Introduction aux sciences sociales et a leurs Méthodes. presse universitaire de lyon, 1986,P 284

10- Idem, P288

11- K.Nair: Marxisme ou structuralisme, critiques de l'economie politique, Oct- decem 1972,P82

12- عبد الباسط عبد المعطي، عادل الهواري، نفس المرجع، ص 216

13- Claude Mouchot, op cité, P289

14- Idem, P 289

15- H. Marcuse: L'homme unidimensionnel, cité par A. Mattelart, penser les medias, éd la découverte, 1991, P 64

17- Philippe berton, serge proulx: l'explosion de communication, ed la decouverte/ bréal 1991, P148

18- op cité, P 154

19- Idem, P 151

20- Idem, P 1954

21- تعريف تقدم به الباحثان الأمريكيان ولزر Walzer، ووينر نقلا عن روجر ويمر وجوزيف دورمنيك: مناهج البحث الإعلامي، ترجمة صالح خليل أبو صبع، الإمارات العربية، صبرا للطباعة والنشر 1989، ص 205

22- تعريف تقدم به الباحث كيرلنجر Kerlinger، نقلا عن روجر ويمر وجوزيف دومنيك، مرجع سابق، ص 205

23- سمير محمد حسين، بحوث الإعلام، الأسس والمبادئ، مصر عالم الكتب، ص 133

24 - Judith Lazar : Sociologie de la communication de masse, éd Arnand colin 1991, 128.

25- Philippe Berton , Serge Proulx: Op, cit, P167

26- Idem, P169

27- Idem P 169

28- من المحاولات الكلاسيكية التي إطلعنا عليها في هذا المجال :

A. Guedji, J. Giraud : Le Monde... humanisme, obgective et politique, e.s 1970

29- ميلفن ل ديفلور، ساندرا بول، روكتيش: نظريات وسائل الإعلام، ترجمة كمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع 1993، ص 332.

30 - Voir, Maurice Mouillaud et Jean François tétu : Le journal quotidien, presses universitaires de Lyon, 1989.

31- R.Barthes: S/Z, seuil, 1970, p14

32- أنظر إلى بعضها التي تضمنها :

Marc Buffat (collectif): Introduction a la semiologie (texte- image) O.P.U

Alger (sans date d'édition)

33- Bois (Jean du): dictionnaire linguistique, larouse, France, 1989, P 157

34- Marc Buffet : discourt / récit, in introduction à la sémiologie ...OP cité, P144

35- Bois (Jean du), Op cit, P 156

36- نقلا عن Marc Buffet, op cit, p48

37 - Pierre Francastel : l'image, la vision et l'imaginaire, denoel/gouthier, 1983, p 173.

38 - R. Barthes : Le message photoghraphique, communication, 1-1962.

39 - E. Morin nouveaux courants dans l'étude des communications de masse, in sociologie de l'information, textes fondamentaux, éd larousse, 1973,p119.

40 - Mouillaud Maurice, tétu François : le quotidien, presse universitaire de Lyon, France 1989, p 56, 58.

41 - Jean mottet : portée sémiologique de quelques concepts linguistiques appliqués au cinéma, in introduction a la sémiologie, op, p 89.

42- يوري لوتمان : سيميوطيقيا السينما، في : مدخل الى السيموطيقيا، ترجمة سيزا قاسم - نصر حامد أبو زيد، الجزء الثاني، منشورات عيون، المغرب، 1987،ص115

43- دينكن ميتشيل: معجم علم الإجتماع، ترجمة ومراجعة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص 148.

44- R.Barthes: mythologies, ed seuil, 1970, p193

45- هشام شرابي: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية 1990، ص 27

46- نفس المرجع : ص 49

47- علي أومليل: الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية إبن خلدون، معهد الإنماء العربي، لبنان، بدون تاريخ، ص 23

48- حوار مع المخرج المسرحي جواد الأسدي، مجلة الطريق، لبنان، أفريل - ماي 1986

49- وليم إيه رو: الصحافة العربية، الإعلام الإخباري وعجلة السياسة في العالم العربي، ترجمة موسى الكلاني المكتب الأردني، 1989، ص 47

50 - Wiliam Seaman : Théorie du public actif, un populisme non fondé, in les dossiers de l'audiovisuel, N 51 Sept - Oct 1993.